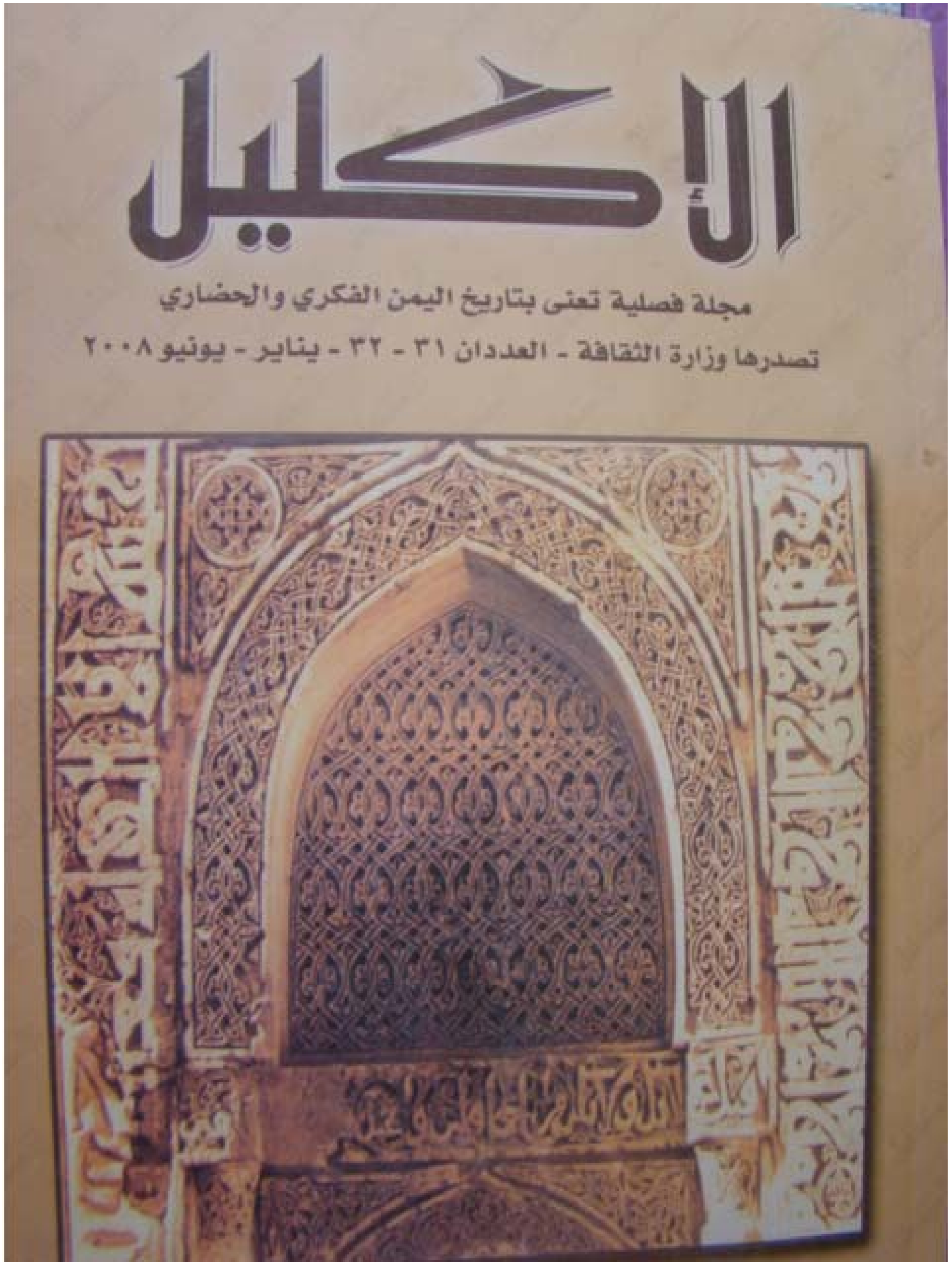
الإكليل
مجلة فصلية تعنى بتاريخ اليمن الفكري والحضاري
تصدرها وزارة الثقافة - العددان ٣١ - ٣٢ - يناير - يونيو ٢٠٠٨

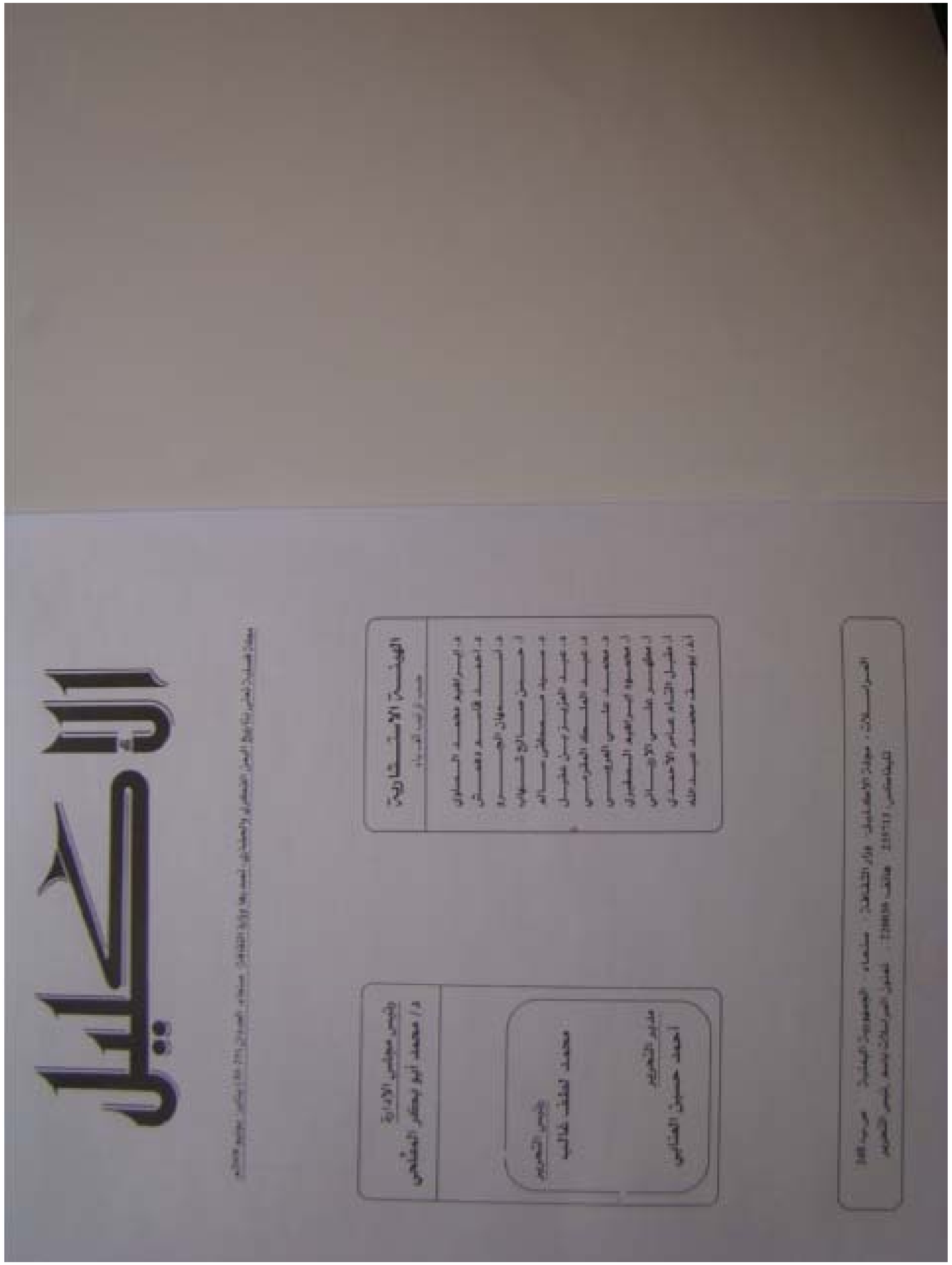
الإكليل

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية	رئيس التحرير	3
دراسات :		7
العلماء المصلحون في اليمن	برنارد هيكل	9
عوامل مقاومة أهل اليمن للحكم العثماني	القاضي إسماعيل الأكوع	26
ناشرون: في نقش مسندي وفي كتب التراث	مطهر الإرياني	37
العلاقات اليمنية المصرية خلال حكم محمد علي باشا (1818-1841م)	جميلة هادي الرجوي	55
مسار حركة الوحدة اليمنية الشروط والضرورات الموضوعية لقيام دولة الوحدة	د. عبدالوهاب الروحاني	71
الشيخ عبدالله علي الحكيمي والوحدة اليمنية	د. خالد عبدالجليل شاهر	88
الوحدة اليمنية والألمانية: دراسة مقارنة	د. محمود قاسم الشعبي	102
الكتابة على الجلود عبر العصور (الرق)	د. علي سعيد سيف	130
آلة العود اليمنية (الطربي)	د. محمد بركات	148
تخطيط مدينة زبيد التاريخية بين الحفاظ والتنمية	د. عبده ثابت العبسي	163
رحلة العالم الألماني أولريخ زيت سن إلى اليمن	محمد الشعيبي	175
تصحيح أخطاء بعض اللغويين والدارسين حول لغة اليمن القديم	عبدالكريم حسين رعدان	190
أطروحات ورسائل :		197
تمنع: هجر كحلان، دراسة تاريخية أثرية	أسوان محمد حسين	199
جزيرتا سقطرى وكمران (من الاحتلال البريطاني حتى الاستقلال)	أمل عبدالمعز الحميري	202
العلاقات التجارية اليمنية البريطانية (من أوائل القرن 17 حتى 1839م)	ابتسام محمد الجراظي	207
تطور الفكر السياسي في اليمن (1930-1962م)	إسماعيل قحطان	214
استدراك: حول تحقيق المخطوطات اليمنية ونشرها		217
دائرة فلكية: من مخطوط يمني		224

الإكليل

عوامل مقاومة أهل اليمن للحكم العثماني

ليس من المبالغة في شيء إذا قلت جازماً إن الدولة العثمانية لم تلق محناً شديدة، تعمتها صابرة ولم تصادف مشقات متتالية خلال حكمها الطويل للولايات العثمانية التي كانت تدور في فلكها بعد أن شملتها بنفوذها، وتكونت منها الدولة العلية الواسعة الأرجاء الممتدة شمالاً إلى أواسط أوروبا الشرقية، وجنوباً إلى ثغر عدن، وشرقاً إلى حدود بلاد فارس، وغرباً إلى حدود المغرب الأقصى مثل ما لقيت من المتاعب والمشقات حينما حكمت اليمن فترتين من الزمن أولاهما من سنة 945 إلى سنة 1045هـ (1538-1635م) والأخرى من سنة 1289 إلى سنة 1336هـ (1872-1918م)؛ وذلك لما كانت تواجهه قواتها المرابطة في اليمن من تحد عنيف، وصراع مسلح شديد من كثير من قبائلها العاتية التي لم تكف عن منازعتها ومحاربة وجودها على أرضها مما جعل القوات العثمانية في حال استنفار دائم.

إذ كانت لا تفرغ من إخضاع قبيلة لطاعتها إلا لتواجه عصيان قبيلة أو قبائل أخرى، ولا تخرج من معركة إلا لتدخل معها في معركة أخرى سواء أكانت منتصرة فيها أم مهزومة، مما تسبب عن ذلك خسائر فادحة في جنود الدولة الذين كانوا يسقطون قتلى في قمم الجبال ومنحدراتها، وعلى تلالها، وفي بطون الأودية السحيقة، ويكفي للتدليل على مقدار ما تكبدته من خسائر فادحة ما رواه مؤرخ الدولة العثمانية قطبُ الدين محمد بن أحمد النهروالي المتوفى سنة 990هـ في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني) بقوله: ولقد سمعت المرحوم أحمد جلبي المقتول دفتر دار مصر يقاوش المرحوم داود باشا في حدود سنة ثلاث وخمسين وتسع مائة، فقال: "ما رأينا مسبكاً مثل اليمن لعسكرنا، كلما جهزنا إليه عسكراً ذاب ذوبان الملح، ولا يعود منه إلا الفرد النادر، ولقد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر من زمن إبراهيم باشا إلى الآن، فرأينا قد جُهِّزَ من مصر على اليمن في هذه المدة ثمانون ألفاً من العسكر لم يبق منهم في اليمن ما يكمل سبعة آلاف نفر". ثم عقب المؤرخ النهروالي على هذا الخبر المفزع بقوله: "وقد تجهز بعد ذلك إلى هذا الزمان - أي زمان تأليف كتابه المذكور - أضعاف ما ذكره محمد بيك رحمه الله، وهلم جرا إلى آخر الزمان"[1] هذا والأمر ما قيل المثل التركي بما ترجمته إلى العربية (اليمن مقبرة الأناضول).

وإذا أمعنا النظر في معرفة أسباب تحمل الدولة العثمانية هذه الخسائر البشرية الفادحة والأموال التي كانت تنفقها على موظفيها في اليمن، وعلى حملاتها العسكرية التي ترسلها إليها كلما ضاق عليها الخناق، واشتد على مراكزها الحصار لتأكد

(1) ص 91-92.

القارئ أنه لا يوجد ما يحملها على ذلك العناء وتلك الخسائر التي جرّتْ عليها إحناً ومحناً لا حصر لها- ما كان أغناها عنها- لولا الجهاد في سبيل توحيد الأقطار الإسلامية تحت لواء حكومة واحدة، بعد أن تفرقت بهم السُّبُل، فضاعت مهابتهم، وبلغ بهم الهوان حداً لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ضراً، ولا يجلبون لها نفعاً، وأصدقُ مثلٍ على ذلك ما جرى للمسلمين في الأندلس، فبعد أن كانت تحكمهم دولة واحدة شديدة الشكيمة مرهوبة الجانب تفرقوا شيعاً وطوائف فكانوا- كما وصفهم الشاعر بقوله:

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين
ومنبرُ

فصاروا حرباً على أنفسهم سلماً على أعدائهم، بل بلغ الأمر ببعض ملوكهم أن استعان بأعدائهم الإفرنج على قتال إخوانه الملوك الآخرين فأعانوهم حتى تمكنوا من القضاء على جميع هؤلاء الملوك واحداً بعد آخر، ثم قام الأسبان بعدئذ بمحو الإسلام من الأندلس بإكراه من نجا من المسلمين من القتل بنزع العقيدة الإسلامية من قلوبهم بعد أن ساموهم سوء العذاب في محاكم التفتيش حتى أرغموهم على التنصير إلا من كتب الله له السلامة بالفرار بدينه من الأندلس على شر حال.

وكان البرتغاليون قد أرسلوا حملات بحرية صليبية تبشيرية مزودة بأحدث الأسلحة النارية في ذلك الوقت إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح للسيطرة على طرق التجارة الدولية وإحكام قبضة أيديهم على مصادرها، ولكنهم كانوا في قرارة أنفسهم يهدفون إلى إعادة الكرَّة لشن حروب صليبية أخرى على ديار المسلمين، فقد أشاعوا أنهم سيهاجمون المدن المقدسة عند المسلمين في الحجاز (مكة والمدينة) وجابت سفنهم البحر الأحمر فنزل بعض جنودهم في جزيرة كمران، ثم تركها بعد دفن آبارها وخراب معاقلها وأبرز معالمها، ثم ذهبت سفنهم إلى عدن ونزل بعض قواتهم على أرضها فلم يتمكن من البقاء لحصانة المدينة. وما إن علم السلطان قانصوه الغوري حاكم مصر في العصر المملوكي الجركسي بالخطر الداهم من وجود البرتغاليين في البحر الأحمر والبحر العربي حتى أرسل حملةً عسكرية بحرية مزودة بأسلحة نارية بقيادة الأمير حسين الكردي، فخرجت من القاهرة في اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة 921هـ الموافق (4 تشرين الثاني سنة 1515م) فكان أول أعمالها تحصين مرفأ جدة وإقامة سور ضخم ذي أبراج عالية حولها[1]، وقد تابعت هذه الحملة سير الحملة البرتغالية وجرت بينهما مناوشات هنا وهناك فابتعد الخطر البرتغالي عن الثغور العربية إلى حد ما لانشغالهم بتعزيز مراكزهم التي استولوا عليها في الإمارات الإسلامية الممتدة على السواحل الغربية للهند حتى يضمنوا لأنفسهم الاحتكار التام لمصادر التجارة في الهند.

ولما كانت الحملة المصرية في حاجة إلى التزود بالأطعمة والمياه وسائر ما يحتاج إليه البقاء في عرض البحر لمُدد متفاوتة، فقد نزلت قواتهم في جزيرة كمران في ذي القعدة سنة 921هـ (1515م)، واتصل قائدهم بالسلطان عامر بن عبد الوهاب ملك اليمن، وطلب منه العون والمساعدة لتستمر قواته مرابطةً حول الثغور العربية لحمايتها من العدو الصائل فاستشار السلطان عامر وزيرَه الفقيه محمد بن محمد النظاري فأشار عليه بالإسراع بمديد العون لإخوانه المسلمين، بينما أشار عليه وزيره الآخر علي بن محمد البعداني بأن يرفض قبول طلبهم لأنهم سيطلبون بعدئذ ما هو أكثر من ذلك، فأخذ السلطان برأيه[2]، لأمر أراده الله. فما كان من قائد الحملة المذكورة إلا أن نزل بقواته في ميناء اللُّحَيَّة، وكان السلطان قد أعد لهذا الأمر عدته فأمر جيشه بالتصدي للقوات المصرية فلما

(1) الفتح العثماني، ص45.
(2) روح الروح.

تقابلا أطلقت القوات المصرية نيران بنادقها على جنود السلطان فولَّوا الأدبار من وجهها لأنه لا قبل لهم بتلك الأسلحة النارية الحديثة التي لم تكن معروفة عندهم من قبل، وأخذت القوات المصرية بالتحالف مع قوى المعارضة اليمنية للسلطان في مطاردة قواته ومطاردته، أيضاً من مكان إلى آخر، حتى انتهى الأمر بقتله خارج العاصمة صنعاء، في شهر ربيع الآخر سنة 923هـ (1517م).

ثم أخذت القوات المصرية بعد أن خلا لها الجوُّ في تثبيت أقدامها في اليمن لحكمها، ولما كان الخطرُ البرتغالي ما يزال ماثلاً للعيان حيث إن أسطوله ما يزال يجوب البحار العربية فقد رأت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول أن خير ما يدفع عن المسلمين الأخطار المحدقة بهم من قبل القوى الصليبية التي باتت تهدد كيان الدولة الإسلامية هو توحيدها في دولة واحدة قوية منيعة تستطيع أن تصد قوى الشر المتربصة بها، ودحرها عن ديار الإسلام، وذلك على غرار ما فعله الملك العادل الناصرُ صلاح الدين الأيوبي رحمه الله حينما أسرع بتوحيد بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن في دولة واحدة وتمكن حينذاك من إرغام ملوك الصليبيين على الخروج من ثغور بلاد الشام ومن القدس بعد معركة حطّين المشهورة فقامت قوات السلطان سليم بالاستيلاء على بلاد الشام ومصر بحروب، وامتد نفوذها إلى الحجاز بالتبعية، أمَّا اليمن فقد أعلن قائد القوات المصرية ولاءه التام للدولة العثمانية بعد أن صارت مصرُ ولايةً عثمانية، واستمر حكم الدولة العثمانية لليمن حتى انحسر الخطرُ البرتغالي الصليبي عن المنطقة كلها، فأمرت قواتها بالانسحاب منها سنة 1045هـ (1635م)، ولكنها عادت إليها مرة أخرى بعد أن اشتد تكالبُ الاستعمار على ديار المسلمين في المائة الهجرية الثالثة عشرة "التاسعة عشرة الميلادية"، وذلك حينما قررت بريطانيا أن تجعل لها محطات في الشواطئ اليمنية تقف عندها سفُنُها البحرية والتجارية في غدُوِّها إلى الهند التي كانت قد استعمرتها وفي رواحها منها لتأمين طرق الملاحة لسفنها وللتزود منها بالفحم فاستولت على جزيرة ميون سنة 1214هـ (1799م)، ثم تخلَّت عنها لعدم وجود مياه فيها صالحة للشرب، ثم عادت إليها مرة أخرى سنة 1274هـ (1857م) بعد أن احتلت عدن سنة 1255هـ (1839م)، وكانت فرنسا قد حذت حذوها، وأنزلت قواتها في المخاء لتحمي طرق ملاحة سفنها كما فعلت بريطانيا إلا أنها دُحرت، ووجدت في الموانئ الإفريقية المحاذية لمرفأ المخاء، والتي كانت قد استولت، عليها ما يفي بغرضها المقصود فتركت المخاء مكرهة، فقررت الدولة العثمانية حينئذ العودة إلى إرسال قواتها إلى اليمن، لاسيما بعد الاضطرابات التي اجتاحت تهامة خلال حكم الشريف حمود بن محمد صاحب أبي عريش على معظم تهامة وما آل إليه أمر البلاد بعده، فأرسل السلطان عبد المجيد حملة عسكرية بقيادة توفيق باشا والشريف محمد بن عون إلى الحديدة، وكان هذا بداية حكم الدولة العثمانية الأخير لليمن، وقد قبلت هذه المهمة على الرغم من معرفتها بهذه المشقة والصعوبة التي ستلقاها وتواجهها في حكم اليمن فهي على ذُكْرٍ بما جرى لها خلال حكمها السابق وما خسرته من جنود وأموال، وما ضاعت عليها من فرص لتبقى قوية في بلادها، لكن الحمية الدينية والغيرة الإسلامية كانت كافيةً لإقناعها بالتضحية بإرسال جنودها إلى اليمن في مغامرة صعبة تعرف سلفاً أنه ستضاعف عليها الإنفاق والخسائر البشرية رغم أنها كانت تعاني في ذلك الوقت مشقة كبيرة في تدهور اقتصادها، ورغم ما كانت تكابده من ديون جسيمة تحملته راضيةً في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام، وفوق ذلك فإنها كانت هدفاً لمؤامرات ودسائس الدول الاستعمارية الكبرى التي كانت تحيكها لها للقضاء عليها حتى يخلو لها الجو فتمد براثنها لتنهش ما تشاء من الولايات العربية الإسلامية وهو ما حدث.

أما ما يقال عن الدولة العثمانية بأنها كانت

دولة استعمارية متخلفة- كما روج لهذا الزعم مؤرخو النصارى وكتابهم ومن يشايعهم من الأقوام الذين هم على شاكلتهم بقصد النيل من سمعة هذه الدولة، وما كانت تمثله خلال حكمها للبلاد العربية وغيرها من قوة وعزة وغيرة على الإسلام والمسلمين حتى انخدع بهذا الزعم كثيرٌ من الكتاب والمؤرخين العرب الذين وقعوا في أسر هذه الدعاية الماكرة فتلقوها بالقبول، فإنه لا يخرج عن حد قول الشاعر:

وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها

مع أن الهدف الحقيقي لهذه الحملة الشنيعة المغرضة من دمغ الحكم العثماني بالاستعمار هو صرف نظر المسلمين عن السعي لوحدتهم تحت لواء حكومة واحدة تجمعهم على كلمة سواء فتعود لهم قوتهم ومهابتهم في قلوب أعدائهم فلا يجرؤ أحد على النيل منهم، كما كان ذلك حالهم في العصور الإسلامية الأولى، وكما كان الحال في إبان ازدهار الحكومة العثمانية حينما كان نفوذها شاملاً لأكثر بلاد الإسلام، وما إن بدأ الضعف يدب في أوصالها حتى أخذ أعداء الإسلام ينهشون في جسم كيانها مما يسر لهم تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى إزالة هيمنة الإسلام من نفوس أتباعه، وإبعاده عن مجرى حياتهم بعد أن عجزوا- حرباً- في تحطيم رابطة المسلمين ووحدتهم فنشْروا في معاهدهم ومدارسهم ومؤسساتهم الثقافية على اختلاف مستوياتها كثيراً من شباب المسلمين الذين بهرتهم قشور الحضارة الغربية بأن فرّغوهم من عقيدتهم الإسلامية فاستجابوا لتوجيه هذه المدارس التي ملأت قلوبهم بعاداتهم وتقاليدهم السيئة التي باعدت بينهم وبين مصدر هدايتهم شيئاً فشيئاً حتى حالت بينهم وبينه، وحينئذ طوعوهم لتنفيذ أغراضهم الخبيثة، وأنابوهم عنهم في محاربة الإسلام، معتقدين أن لن تعود له قوته المؤثرة في نفوس أتباعه بعد أن نزعوا من قلوبهم حبه.

ولهذا فإن أعداء الإسلام لا يفزعهم شيء مثل ما يفزعهم ظهور من يدعو المسلمين إلى الرجوع إلى دينهم الصحيح والتمسك به، وهو ما كان يسعى إليه جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا وغيرهم لأن فيه علاج مشكلاتهم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفيه إذا اجتمعوا على كلمة سواء عزُّهم وقوتهم، وقد لقيت هذه الدعوة استجابةً هنا وهناك إلا أن غالبية المسلمين وهم الذين لا حول لهم ولا طول ساروا وراء أئمتهم وزعمائهم في الطرق التي باعدت بينهم وبين دينهم، ولم يمتثلوا لقول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الأنعام: 153.

ثم انجرف شبابهم وراء أفكار ومبادئ وضعية حملتها إليهم عقول ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب لتقطع صلتهم بدينهم فوقعوا فريسةً لأعدائهم يتحكمون فيهم كما يشاؤون فازدادوا بذلك حيرةً في عقولهم، وإفلاساً في أخلاقهم الحميدة، وضياعاً في تحديد هويتهم، وتردياً في مهاوي التلف والهلاك حتى غدوا يطلبون من أعدائهم أن يساعدوهم على حلّ مشكلاتهم، مع أنهم هم الذين أوجدوها لهم، وما قضية فلسطين- التي لم تظهر محنتها جليةً إلا بعد سقوط الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، وفي عهد الانتداب البريطاني، ثم في عهد الاستقلال الوطني- عنك ببعيد، ومع التسليم جدلاً بأن الحكم العثماني حكمٌ استعماري فلنخضعه للمعايير التي هي أبرز سمات حكم الاستعمار لنرى إذا كانت تنطبق عليه أم لا؟.

لقد حكمت الدولة العثمانية أقطاراً عربية معروفة فلم يؤثر عن الدولة العثمانية - وأنا أتحدث عن اليمن لمعرفتي بأحوالها معرفة تبلغ درجة اليقين -

أن حكمها لها كان من أجل السيطرة عليها طمعاً في امتلاك ثرواتها، وابتزاز خيراتها، وتسخير رجالها لمنافعها، وسوقهم كقطعان الماشية إلى بلادها لتعميرها، وتشييد قصورها وتطوير زراعتها وصناعتها، وشق طرقها، ومد جسورها وإخراج المعادن من جوف الأرض، ولاسيما الفحم الذي كان مصدر الطاقة المحركة للسفن والقطارات آنذاك، وهو ما كانت تفعله الدول الاستعمارية الغربية التي لم تقم حضارتها المعاصرة، وتزدهر بلدانها، وتنمو تجارتها إلا على خيرات المستعمرات، وعلى أكتاف العمال الذين كانت تأتي بهم منها، ولم تكن تلك الدول الاستعمارية تكتفي بسلب خيرات الشعوب المستعمَرة لها فحسب، بل إنها كانت تزرع بذور الشقاق والنزاع بين طوائف تلك الشعوب المغلوبة على أمرها، وتغرس الفُرقة بين طبقاتها التي كانت متآلفة من قبل، ولاسيما إذا كانت الشعوب المستعمَرة شعوباً إسلامية، فإن الاستعمار كان يسعى حثيثاً إلى تمزيق وحدتها مستغلاً ما يوجد فيها من تباين عرقي أو قومي أو ديني أو مذهبي فيثير تلك الخلافات ويرسخها في أذهانهم لتتحول إلى مصدر فتنة ونزاع دائم بين أبناء الشعب الواحد لتظل متأججة حتى يتمكن المستعمر من استمرار هيمنته على تلك الشعوب، وحتى بعد زوال حكمه العسكري عنها، وحصولها على الاستقلال الوهمي.

وهذا ما لم تفعله الدولة العثمانية في الأقطار العربية التي حكمتها، ولا في غيرها من الشعوب الأوروبية التي امتد نفوذها إليها البتة، وإذا اعتبر ظلم ولاة الدولة العثمانية وجورهم وقسوتهم الشديدة على الشعوب التي تولوا حكمها كدليل على استعمارية دولتهم، ولاسيما بعد ظهور النزعة القومية الطورانية التي أخذ بها حزب الاتحاد والترقي فاضطهد عليهم المسلمين ذوي القوميات الأخرى فإن ذلك ليس بدليل على أنها دولة استعمارية، ذلك لأن العسف والجور

والقسوة في الحكم موجودة لدى الحكام الوطنيين، ولن أذهب بعيداً لإبراز الشواهد على صدق ذلك، وسأقتصر على أول شاهد، ألا وهو الإمام يحيى بن محمد حميد الدين (1286- 1367هـ/ 1869- 1948م)، الذي أكتبُ عنه عن بينة لأني كنت معاصراً الشطر الأخير من حكمه، مع أنه في نظر من لا دراية له بتاريخه بطل استقلال اليمن، فلقد حكم ما حكم من اليمن خمساً وأربعين سنة، وهي المدة نفسها التي حكمت الدولة العثمانية اليمن في الفترة الأخيرة، مع العلم أن اليمن خضعت لحكم الإمام يحيى خضوعاً تاماً، بينما كانت الدولة العثمانية في حال حرب في اليمن- كما سبق وصف ذلك في بداية هذا البحث- فلم تنعم بأي نوع من الاستقرار والراحة، ولم تظفر بشيء من الهدوء والاطمئنان على الإطلاق، ومع هذا فمن المستحسن أن ننظر إلى ما تركه كل من الإمام يحيى والحكم العثماني، من مبرات خيرية ومحاسن خالدة شاهدة لأولها بالعدل والإحسان والخير والصلاح.

لقد حكم الإمام يحيى اليمن حكماً مطلقاً اتسم بالظلم المتناهي في الشدة والقسوة فلم يَبْنِ مدرسة، ولم يعمر مأثرة، ولم يهتم بالتعليم ومكافحة الأمراض وإسعاد المواطنين والرفق بهم، وكان لا يهتم بشيء من أمور الدين، وهو الذي لقّب نفسه أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، إلا بالزكاة فقط، أما بقية أركان الإسلام الخمسة فلا شأن له بها، بل إنه قد حصر اهتمامه كله على أخذها أضعافاً مضاعفة حتى أفقر الزراع، وكان إذا استدعى الأمرُ لإرساله بعض جنوده لجباية الزكاة أو لقمع اضطراب أو فتنة أو لأي سبب من الأسباب فإنه يلزم جنوده وعساكره بالنزول في بيوت المواطنين مرحلةً بعد مرحلةٍ منذ خروجهم من صنعاء حتى ينتهوا إلى المكان المقصود، وهنالك يتفرقون على بيوت الأهالي، وعليهم أن يوفروا لهم جميع لوازم الإقامة من أكل وشرب، ويسمى هذا

الاحتلال في عرف أهل اليمن خطاطاً[1]، ولا يتصرفون من هذه البيوت إلا بعد أن يتحقق لهم تنفيذ المهمة التي كلفوا بتنفيذها، وبعد أن يأخذوا أجور إقامتهم، عن كل يوم مقداراً معلوماً وقد يقتضي الأمر أحياناً أن يستدعي الإمام رجال إحدى القبائل فيسلطها على قبيلة أخرى لإخضاعها لطاعته أو لتأديبها، وهذه سنة متبعة لدى أئمة اليمن، وقد افصح عنها الإمام أحمد بن سليمان من أعيان المائة السادسة للهجرة بقوله من (قصيدة طويلة):

والضربن قبيلة بقبيلة
ولأملأن بيوتهن تباعا

أما حكم الدولة العثمانية فقد كان يتخذ لجنودها مخيمات خارج المدن أو القرى التي يمرون بها أو يقصدونها فهذا الوزير بهرام بن مصطفى باشا الذي عُيّن والياً لليمن فإنه بعد وصوله إليها سنة 977هـ (1569م) أحب البقاء في مدينة ذمار ولكنه لم يسكن فيها، وأقام مخيماً إلى الجنوب منها عرفت فيما بعد بمدينة ملحط، وابتنى فيها جامعاً كبيراً وبنى أمراء ورجال دولته مساكن لهم، وسكن فيها خمس سنوات وضرب فيها السكة[2]، وحينما قدم الوالي أحمد مختار باشا إلى صنعاء بجيشه سنة 1289هـ (1873م) عسكر في الضاحية الجنوبية بصنعاء[3]، ولم يدخل أحد من جنوده المدينة ولما اعتدى أهل مدينة ذمار على دار الحكومة فيها سنة 1309هـ (1892م) وأحرقوا أوراق ودفاتر الدولة، ثم أخربوا قصر ذمار الذي بناه علي باشا في المائة الهجرية الحادية عشرة سار الوالي العثماني المشير أحمد فيضي باشا من صنعاء على رأس حملة عسكرية كبيرة لتأديب مرتكبي تلك الجرائم فكان يعسكر خارج المحطات التي ينتهي إليها سيره اليومي حتى بلغ ذمار فأقام مخيماً خارج المدينة في المكان الذي أمر هذا الوالي ببناء قشلة (قشلاق) ثكنة عسكرية لحامية ذمار، ثم استدعى إليه أعيان المدينة فحضروا، وعلى رأسهم الشيخ صالح صلعي فسأله عن سبب إحراق أوراق الدولة وهدم القصر فأجاب عليه بقوله: لقد فعلنا ذلك نكاية بحكم، ولن تكفّ عن محاربتكم، وكانت بندقيته، وهي من ذوات الشقط في يده، وفي بطنها رصاصة واحدة، ويحتفظ بأخرى في فمه ثم قال- كما سمعت والذي روى لي الخبر، ولعله كان حاضراً هذا الموقف فقد كان عمره آنذاك (28) سنة: "والله ما يَدّي صلح ساعة" أي لن نعطيكم صلحاً أبداً حتى ساعة واحدة فلن نوافق عليها، فلما سمع الوالي إرعاده وإبراقه وتهديده ضحك ساخراً منه، ثم خلاه وشأنه، وأمر على الفور ببناء ثكنة في مشارف المدينة لترابط فيها حامية ذمار فتحول دون تكرار مثل هذه الأعمال الهمجية.

وإلى جانب هذا الرفق فقد قام الحكم العثماني غير المستقر في اليمن ببناء مرافق عظيمة انتفعت بها الدولة آنذاك، وانتفع بها من جاء بعدها- وما تزال حتى اليوم ينتفع بها- وهي شاهدة على مكانة هذه الدولة، فقد بنت الدولة العثمانية في كوكبان قشلة لا نظير لها في اليمن، وكان الباني لها الوالي أحمد رشدي سنة 1312هـ الموافق بالتاريخ العثماني الشمسي 1310(1894م)، كما أعاد الوالي أحمد فيضي باشا بناء باب اليمن سنة 1316هـ (1898م) على ما هو عليه اليوم بعد أن كان ملتوياً لا يرى من الخارج حتى لا يكون هدفاً لقذائف المدافع حينما تتعرض صنعاء لهجوم من يريد بها شراً، وأعيد كذلك بناء باب شعوب، كما أعاد المشير عبد الله باشا الشركسي عمارة باب السبحة سنة 1318هـ (1900م) وجعل له سقيفة رائعة الجمال، فكان تحفة فنية، وقد هدم

---

(1) الخطاط: تفريق الجيش على الأهالي للقيام بنفقتهم أكلاً وشرباً إما على جهة المعونة للدولة، وإما للتنكيل والعقوبة بهم.

(2) الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان.

(3) المقتطف (96)، وقد بني في هذا المكان العرضي (الأورطي) الأسفل والعرضي الأعلى.

كلا البابين بعد قيام النظام الجمهوري سنة 1382هـ (1962م)، وشرع المشير عبد الله باشا بشق شارع مستقيم يقسم مدينة صنعاء نصفين يبتدئ من ميدان القصر شرقاً إلى باب السبحة غرباً على غرار شوارع حي بير العزب الذي اختطه الولاة العثمانيون في حكمهم الأول لليمن 945- 1045هـ (1538- 1635م) ولكن هذا العمل تعثر بعد أن أنجز منه ما يقرب من نصف كيلومتر من كل من الطرفين، أي من طرف الميدان إلى نهاية سوق الملح شرقاً، ومن باب السبح إلى باب اليهرين غرباً. كما أكمل بناء العرضي (الأورطي) ثكنات الجيش التي شرع في بنائها الوالي أحمد أيوب باشا، وبنى فيها مسجداً ومنارة لا نظير لهما في اليمن، وبنى فيها حماماً بخارياً، كما بنى أيضاً العرضي الأعلى الخاص بجنود وضباط المدفعية، وبنى الحكم العثماني دار الحكومة[1]، (المقر الرئيسي للوالي العثماني) في ميدان القصر (ميدان اللقية اليوم) وهو المعروف اليوم بكلية الأركان، كما بنى داراً في حي بير العزب لتكون مسكناً للوالي، وبنى بجوارها مدرسة الصنائع التي حولها الأمام يحيى إلى سجن، ثم حولها إلى دار للضيافة، ثم تحولت في العهد الجمهوري إلى وزارة للداخلية، وهي في الوقت الحاضر متحف عسكري، كما بنى مدرسة للبنات بجوار مدرسة الصنائع والتي هي اليوم وزارة التربية والتعليم، وبنى الحكم العثماني مستشفى ضخماً في منتصف العاصمة ليسهل الوصول إليه من جميع أحياء المدينة وبنى المدرسة الحربية وعدداً من المدارس الرشدية (الثانوية)، ودار المعلمين وأنشأ مطبعة كانت تطبع فيها (جريدة صنعاء) التي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، وبنى ثلاث قلاع في جبل نقم (جبل صنعاء) لحمايتها من هجوم القبائل كما بنى قلاعاً وحصوناً على امتداد الطريق التي تربط صنعاء بالحديدة، وشق طرقاً في الجبال لجر المدافع بالبغال، وربط مدن اليمن بعاصمتها بخط السلك (التلغراف)، ودرب عدداً كثيراً من شباب صنعاء والحديدة وتعز على استخدام السلك، ودرب آخرين على الأنظمة الحسابية والإدارية والشئون العسكرية بعد أن درب عدداً من السرايا من الشباب اليمني لحفظ الأمن ولحماية مداخل العاصمة وضواحيها، وقد سميت هذه السرايا بالحميدية نسبة إلى السلطان عبد الحميد.

وقام الحكم العثماني ببناء مثل بعض هذه المرافق في كل من تعز والحديدة ولا تخلو مدينة (من المدن الكبيرة) من وجود ثكنة للجيش ومقر للحكومة ومدرسة ابتدائية ومدرسة رشدية ومستشفى.

هذا هو ما خلفه الحكم العثماني في اليمن في المرحلة الأخيرة على وجه الاختصار، ويستطيع القارئ الكريم من خلال المقارنة بين الحكم الوطني الذي يمثله الإمام يحيى وبين الحكم غير الوطني، وهو الحكم العثماني أن يقرر أي الحكمين أفضل بعد أن أسفر الصبح لذي عينين، على أن الإمام يحيى كان أكثر من استفاد من الآثار الباقية للحكم العثماني، ومع هذا فإنه قد عبث بكثير منها فقد انتزع عدداً من مباني المستشفى العثماني وبنى فوق أحدها عدداً من الطوابق وجعلها مقراً له وسماها (دار السعادة) ثم بنى بجوارها داراً أخرى سماها (دار الشكر) وحول بقية مباني المستشفى إلى دوائر حكومية لتكون تحت سمعه وبصره، وبنى مستشفى في أقصى الركن الجنوبي الغربي من المدينة وهو لا يصلح إلا أن يكون إسطبلاً للحيوانات فهو أشبه ما يكون بدهليز، وكان أصعب شيء على المريض هو الوصول إليه لبعده عن الأحياء السكنية لأنه لا توجد آنذاك وسائل نقل في العاصمة، وكان يوجد فيها عدد من السيارات في عهد الإمام يحيى، ولكنها كانت خاصة به، وحول الإمام مسكن الوالي العثماني إلى

---

(1) حولها الإمام يحيى إلى مصنع للسبح ثم كانت المقر الصغيرة وزارة الداخلية في العهد الجمهوري، فمقراً ثانياً لشرطة النجدة وهي في الوقت الحاضر كلية الأركان.

مدرسة علمية سنة 1344هـ (1926م) لحاجة في نفس يعقوب، وهو تعليم أولاده الصغار بعد أن استدعى عدداً من العلماء من خارج صنعاء مع علماء من صنعاء للتدريس فيها، ولم يكن غرضه منها نشر العلم لمن يرغب في طلبه إذ كان لا يسمح لأحد بالالتحاق بها إلا بأمره شخصياً على شرط أن يكون في الغالب من الأسر التي تحتكر العلم والسلطة لنفسها، وبنى بجوار داره مسجداً على غرار (المدرسة البَكِيْرِيَّة)[1]، التي بناها الوزير حسن باشا سنة 1005هـ (1596م)، وسلب منها أحسن فراشها وأخذ منها أيضاً ساعتي حائط لتزيين مسجده المذكور المعروف بقبة المتوكل.

وإذا انتفت عن الحكم العثماني الصفات الراسخة في طبيعة الحكم الاستعماري وهي ما لم يسمها بها أحد من أهل اليمن آنذاك حتى الذين كانوا يناصبونها العداء، ويحاربونها؟! فما هي إذاً دوافعهم لمحاربة الحكم العثماني؟ لقد كان الاعتقاد السائد لدى من لم يعرف بواطن الأمور من غير أهل اليمن أن ذلك يعود إلى طبيعة فيهم، وهي كراهية حكم الأجنبي أياً كان، وهذا غير صحيح إذ لو كان هذا هو السبب الحقيقي لما قبلوا أن يحكمهم من يأتي إلى بلادهم من خارجها ويقيموه إماماً عليهم، ويرضخوا لحكمه، وهو بمفهوم العصر الحديث أجنبي.

والصحيح في ذلك أن المذهب الزيدي الهادوي الذي جاء به إلى اليمن مؤسسه الأول الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي سنة 284هـ (897م) قد حصر الإمامة هو ومن قام بعده من الأئمة في أولاد السبطين الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فقط، واحتكروها لأنفسهم حتى جعلوها أصلاً من أصول الدين فإذا تولاها أحد من غير أبناء هذين البطنين، وحكم المناطق التي يدين أهلها بالمذهب الزيدي الهادوي فإنه يعتبر غاصباً للحكم، باغياً يجب الخروج عليه لمحاربته والقضاء عليه، ولهذا فإن نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة 573هـ (1177م) ما كاد يعلن نفسه إماماً حتى ثارت ثائرة من ينتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في اليمن، وأنكروا عليه صنيعه، وظل هدفاً لسهام النقد حتى بعد وفاته وإلى أن انتهى النظام الإمامي في اليمن، وكان على رأس من أنكر عليه بعد وفاته الإمام عبد الله بن حمزة المتوفى سنة 614هـ (1217م) فقد ذكر في أرجوزته التي أورد فيها أصول العقائد عند الزيدية التي مطلعها:

الحمد للمهيمن المنان
ذي الطول والعزة والسلطان

رأيه فيه وحكمه عليه، فقال تحت عنوان (التفضيل):

حمداً لمن أيدنا بعصمته
واختصنا بفضله ورحمته
صرنا بحكم الواحد المنان
نملك أعناق ذوي الإيمان
ومن عصانا كان في النيران
بين يدي فرعون أو هامان
لو أنه صام وصلى واجتهد
ووحد الله تعالى وعبد
وصير الثوب نظيفاً والجسد
وقام بالطاعة بالعزم الأشد
ثم عصى قائلنا المشهورا
وقال: لست تابعاً مأمورا
مختصباً لأمركم مقهورا
لكان ملعوناً بها مثبورا
وكان من أهل الجحيم الحامية
وأمه فيها يقيناً هاوية
وما الذي يدري الجهول ماهيه؟
نار تصليه بها الزبانيه
إن بني أحمد سادات الأمم
بذا لهم رب السماوات حكم
من أنكر الفضل لآلبيه الصمم

---

(1) سمعت أن أحد أقارب الإمام يحيى كان يريد أن يحولها إلى مخزن لعلف دواب الإمام لأنها لا تصح فيها الصلاة لكونها من عمل كفار التأويل، ولا قربة لكافر.

من عنده البدر سواء والحمم
قد قال: من أنكر فضل الأخيار
أعني به بيت النبي المختار
مقالة يغضب منه الجبار
ليس لحكم الله فينا إنكار
أنكر فضل الفاضلين بالنسب
وهو إلى نيل العلا أقوى سبب
تقول هذا إن شكا وإن عتب
لا يستوي الرأس لدينا والذنب

ثم أخذ في وصف نشوان بن سعيد الحميري، وتعريف الناس بمكانته العلمية والدينية والاجتماعية طالباً منهم الحكم عليه لأنه دعا إلى نفسه بالإمامة وهو لا حق له فيها:

ما قولكم في مؤمن صوام
موحد مجتهد قوام؟
حبر بكل غامض علام
وذكره قد شاع في الأنام؟
لم يبق فن من فنون العلم
إلا وقد أمسى له ذا فهم
وهو إلى الدين الحنيف ينتمي
محكم الرأي صحيح الجسم
وماله أصل إلى آل الحسن
ولا إلى آل الحسين المؤتمن
بل هو من أرفع بيت في اليمن
قد استوى السر لديه والعلن
ثم انبرى يدعو إلى الإمامه
لنفسه المؤمنة القوامه
ثمت أجرى بالقضا أقلامه
وأنفذت أسيافه أحكامه
وقطع السارق والمحاربا
واستل للعاصين سيفاً قاضبا
وقاد نحو ضده المقانبا
وبث في أرض العدا الكتائبا
ما حكمه عند ثقاة الفضل
لما تناوى أصله عن أصلي

ولم يكن من معشري وأهلي
أهل الكساء موضع علم الرسل

وبيّن حكمه عليه بقوله:

أما الذي عند جدودي فيه
فيقطعون لسنه من فيه!!
ويؤتمون ضحوة بنيه
إذ صار حق الغير يدعيه

ثم قال معللاً وجود الفرق بين العلويين وغيرهم وهم الذين لا يحق لهم أن تكون فيهم الإمامة:

ليس على ربي اعتراض لأحد
يفعل ما شاء تعالى ومجد
لم يجعل الكلب سواءً والأسد
فاطرحوا ثوب العناد والحسد

وهذا هو السبب الذي جعل أئمة اليمن وأتباعهم يحاربون الحكم العثماني في الفترتين الأولى والأخرى، وهو السبب نفسه الذي حاربوا من قبل الحكم الأيوبي في اليمن 569- 626هـ (1173- 1238م) وكذلك حكم الدولة الرسولية 626- 858هـ (1328- 1454م)، ثم الدولة الطاهرية 858- 923هـ (1454- 1517م)، وغيرهم من قبل ومن بعد، فإذا رأيت ثمَّ معارضة لأي حكم، فإن وراء ذلك إماماً يستفز أتباعه، ويثير فيهم حمية الجاهلية للقتال معه حتى ينفرد بالحكم ويستأثر بالسلطة، ولو ترك القطا لنام، وليس أدل على ذلك من أن الإمام يحيى حميد الدين حينما عقد التئلاف (صلح) دعان في شوال سنة 1329هـ (1911م) مع المشير أحمد عزت باشا الوالي العثماني في اليمن حتى تتفرغ الدولة العثمانية لصد عدوان إيطاليا على طرابلس الغرب أثنى الإمام على الدولة العثمانية، ووصفها بأنها حامية الإسلام وناصرة المسلمين، فاستغرب أتباع الإمام يحيى من سرعة تحوله بين عشية وضحاها من إمام محارب يدعي أن الحق معه وحده إلى رجل يشيد بالدولة العثمانية، ويمجد أعمالها ويثني عليها، لأنه إذا

كانت محاربته للعثمانيين صادرة عن عقيدة دينية صادقة، وليس من أجل دنيا يصيبها فلماذا قبل الصلح معهم؟، وقبل راتباً شهرياً يأخذه منهم حتى صار من المؤلفة قلوبهم، وهم في نظره ونظر اتباعه بغاة، وإن كان من أجل الدنيا فلماذا لم يفصح عن ذلك بوقته، ولا حاجة للقتال وسفك دماء المسلمين من كلا الطرفين، وهذا هو ما عبر عنه الشاعر القبلي زاهر عطشان بقوله:

قالوا: سير صلح دعان
فيـه سـوّوا رجـال
عليش سوّوا؟ وكيف سوّوا
وكيـف المقـال
لكـن وليش مـا يسوّوا
قبـل بـدع القتـال

والمعنى لقد اصطلح الرجال المتقاتلون في بلدة دعان، لكن على أي شيء اتفقوا؟ وكيف اتفقوا؟ وكيف تقول ذلك للناس؟ ولكن لماذا لم يتفقوا من البداية قبل بدء القتال؟

أما أتباع غير المذهب الزيدي وهم أكثر سكان اليمن فإنهم كانوا لا يجدون في أنفسهم غضاضة تجاه الحكم العثماني على الرغم من جور وقسوة وظلم بعض الولاة العثمانيين، بل كان بعضهم يفضله على حكم الأئمة؟ ولهذا فإنه ما كادت تعلن الحكومة العثمانية في اليمن على لسان واليها محمود نديم باشا آخر ولاتها في اليمن بأمر من السلطان محمد رشاد أنها تخلت عن حكم اليمن بعد الهزيمة التي حلت بها في الحرب العالمية الأولى، وأنها قد استدعت الإمام يحيى من السودة مقر إقامته إلى صنعاء ليتسلم من الوالي العثماني المذكور ما كانت تحكمه الدولة حتى اشتد بأتباع المذهب الشافعي البلاء وعظم عليهم المصاب، فكتب بعض أعيان لواء تعز برقية إلى القائد العثماني علي سعيد باشا قائد الحملة العثمانية على الاستعمار البريطاني في عدن، وكان في مقر قيادته في لحج بما هذا نصه: "حضرة القائد الكبير للجيوش الإسلامية بلحج سعيد باشا دام نصره.

قد علم العموم أن دولتكم السبب الوحيد لإحياء حفظ هذه القطعة اليمانية عن تعدي الأعداء عليها، وأنها لولا ما أبرزتموه من الثبات والثقافة الدينية، وبذل النفس للجهاد في سبيل الله حتى صرتم مظهراً للتوفيق والنصر الإلهي، والظفر غير الشافعي فقلدتم أعناق ساكن القطعة اليمانية طوق الامتنان الذي لا يقوم بشكر أقلها الشان، وأصبحتم شمساً مشعة على هذه القطعة يهتدي بنوركم في ليل الخطوب فاجتذبتم أزمة القلوب، وحزتم أعظم الأجور من علام الغيوب، وبينما العموم يشكرون فعلكم الجميل إذ شاعت أخبار مفجعة وحركات مدهشة فأظلم ليل الخطب واعتكر، بعد أن كان فجر الإصباح أسفر، وتأيدت تلك الإشاعات بسحب الموجود في المركز من القوة وتعطيل المستشفى، وبيع الأشياء الأميرية، وأخذ الأمراض إلى غير ذلك مما ترى معه الأفكار مضطربة والآراء مشتتة، والعقول مختلفة، والأخبار غير مؤتلفة، والعموم ناظرون إلى رأيكم الصائب ودهائكم العظيم، واليقين العام بديانتكم وشهامتكم عدم الاعتماد على إلقاءات الأعداء مع أنه يتصور خديعتهم بكل خبر مشابه للصدق، وتزويراتهم غير مجهولة، ولو كان ذلك حقاً فلا يخفاكم حبنا للدولة العلية العثمانية قديماً وحديثاً وارتباطنا بعاصمة الخلافة لا نستبدل به غيره، وقد بذلنا - أهالي هذا اللواء (تعز) - النفس والنفيس في المظاهرات والمعاونات بأمر الجهاد، والأمل العمومي بديانتكم أن لا تتركوا التبليغ إلى مقر الخلافة بأننا مرتبطون بها وغير منفكين عن سلطتها. ونسألكم بالله أن لا تتحركوا حتى تعلمونا السبب الباعث لهذه القطعة همّاً وبتر عضو من الإسلام، ونرجوكم تسكين روعة العموم بإفادتنا بالنتيجة. وها نحن منتظرون التفاتكم الكلي علينا ببذل مزيد العناية بالمراجعة إن كان لهذه الإشاعة

صحة فرمان 20 صفر 1337هـ، 17 تشرين الثاني سنة 1334 رومي (المصادف للتاريخ الميلادي 1918)[1].

وكتب تحتها أسماء كاتبي هذه الشكاية وعلاماتهم. هذا ما سنح ذكره بحسب علمي والله من وراء القصد.

مراجع البحث:

- أئمة اليمن، محمد بن محمد زبارة، مطبعة النصر، تعز.
- الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، عبد الصمد بن إسماعيل الموزعي، من أعلام المائة الحادية عشرة للهجرة.
- البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين النهروالي، أشرف على طبعه الشيخ حمد الجاسر.
- أنباء الزمن ليحيى بن الحسين.
- روح الروح في ما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، عيسى بن لطف الله بن المطهر بن شرف الدين.
- سيرة الإمام عبد الله بن حمزة.
- الفتح العثماني الأول لليمن، دكتور سيد مصطفى سالم، معهد البحوث والدراسات العربية.
- المقتطف من تاريخ اليمن، عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1370هـ/1951م.
- هدية الزمن في أخبار لحج وعدن، أحمد فضل العبدلي، المطبعة السلفية.

(1) هدية الزمن، 249-250.